المحاضرة الثامنة :

مصداقية النتائج في علم التاريخ

1-القانون في علم التاريخ:

إن الحكم على فعالية المنهج مرتبط بتحصيل هذا المنهج لنتائج عادة ما تستقر هذه النتائج في صورة قوانين، بحيث تعكس هده القوانين حقيقة الظاهرة. فهل بلف علم التاريخ هذا المقصد؟ يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات بصفة نوعية تتمثل في العودة إلى الماضي والتنقل عبر الأبعاد الزمانية، وتعتبر خاصية يتفرد بها. أيضا، العودة إلى الماضي هي بمثابة محاولة جادة لفهم الذات غذ من خلاله يحدد نقطة الانطلاق، ومن ثم يدرك مبتغاه فالتاريخ هو مرآة الإنسان " فإذا كان الإنسان المدون للتاريخ مثقفا جدا، فإنتاجه التاريخي سيكون مرآة لثقافة وقدرته العقلية" .

إن الإنسان هو موضوع التاريخ، وهو صانع التاريخ وهو المدون له وما يجعل الإنسان يدخل في هذه العلاقة هو اجتماعية الإنسان. أن العودة إلى التاريخ لا يتم بطريقة فوضوية بل يجب أن تكون مؤسسة تأسيا منهجيا وقانونيا، لأن القانون يعبر عن الدقة و اليقين، وهذا ما سعى أليه ابن خلدون وفيكو. إن فكرة القانون في التاريخ تظهر في المنهج الخلدوني من خلال المراحل التي رسمها لعمر الدولة، والتي شبهها بعمر الإنسان، وقسم ابن خلدون قيام الدولة واستمراريتها إلى أربع أقسام أو أجيال.

1-الجيل الأول:

إن الجيل الأول ينشأ من البداوة والخشونة وهذا الجيل سيلك طبيعة حيوانية بعيدة كل البعد عن السلوك الإنساني الحضاري، يقول ابن خلدون :" **لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد**".

2- الجيل الثاني:

بعد جيل البداوة يأتي جيل الحضارة إذ يتخلص من العصبية، ويتخلى عن حياة الخشونة والترف إلى الاستقامة وضبط السلوك وتنظيم العلاقات، يسيطر فيه سلطة العقل وكبح الشهوات، يقول

ابن خلدون: **" والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به".**

3-الجيل الثالث:

دخلنا في الجيل الثاني إلى عام الوعي المنافسة الفردية بعيدا عن العصبية الجماعية ثم تنتقل الدولة إلى الجيل الثالث، هذا الجيل الذي يتخلص من كل بقايا الجيل الأول ويتجاهل ما حققه الجيل الثاني من انجازات حضارية، ويمضي إلى الترف ولا يحافظ على الدول، ويمتاز هذا الجيل باللامبالاة فيكون بذلك سببا وتمهيدا لانهيار الدولة وزوالها، يقول ابن خلدون:" **وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بمن هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم وغضارة العيش فيصرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم**

الجيل الثالث هو الطوفان الذي يأتي على كل ما بناه الجيل الأول والثاني ومعه تزول الدولة.

4-الجيل الرابع:

أما الجيل الرابع فمعه ينقرض الحسب، وهكذا يعتقد ابن خلدون أنه قنن حركة التاريخ بتقنية لمراحل قيام الدولة وزوالها .

<u>القانون عند فيكو</u>:

وتستمر محاولات تقنين الظاهرة التاريخية مع فيكو غذ يحاول هذا الأخير أن يؤسس قانون شبيه بالقانون الفيزيائي، بحيث يعكس هذا القانون مراحل قيام الحضارة وسقوطها أو ما يعرف بالدولة الحضارية التاريخ مبينا أن البشري يسير وفق حتمية ثابتة تتألف من ثلاث عصور تتمثل في:

1- عصر الآلهة:

وفي هذا العصر تسود الخرافات والأوهام والأساطير، ويسيطر على الناس الخوف الشديد من الظواهر الطبيعة، ويخضعون لسلطة الآلهة معتقدين أنها الإرادة الوحيدة التي ليس بعدها إرادة.

2-عصر الأبطال:

بعد نمو الوعي اللإنساني بعض الشيء تنتقل البشرية إلى عصر الأبطال أين يحكم رجال الحرب والسياسة السلطة، منتزعين إياها من رجال الدين والكهنوت، ويتأسس بذلك نظام ارستقراطي مستبد يسخر هذا النظام لخدمة الطبقة الغنية، مما يؤدي إلى خلق صراع بين الطبقة الحاكمة المستبدة والطبقة المحكومة.

3-عصر الإنسان:

ينتهي الصراع بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة إلى ميلاد عصر جديد هو عصر الإنسان، وفيه يسود النظام الديمقراطي الذي يمجد الحريات الفردية، ويساوي بين الناس في الحقوق و الواجبات لكن هذا العصر يفتن بفكرة الحرية المطلقة مما يؤدي إلى خلق الفوضى، وتتلاشى الروابط الاجتماعية، ويشتد الصراع معلنا بذلك انهيار الدولة و العودة إلى مرحلة الآلهة من جديد.

نقد وتقييم:

لكن هل يمكن التسليم بهذه التقنيات واعتبارها انعكاسا للحقيقة التاريخية والمنهج التاريخي؟

يمكن الاعتراض علة ما اقترحه ابن خلدون وفيكو في عدة اعتراضات، منها:

-إن أول ما يلاحظ علة القانون في التاريخ انه يخرج من إرادة الباحث ويدخل في إرادة الإنسان، كما أن القانون التاريخي يسير بعكس القانون الطبيعي، لأن هذا الأخير يوحد بين أبناء البشر وهذا غير ممكنأ لأن الاختلاف واضح بين البشر.

- نجد أن تفسيرات ابن خلدون منعه منهجه عن بلوغ الحقيقة، ووقع فيما عابه على غيره فهو بتسطير

لأجيال الدولة حتم عليها الزوال في الجيل الثالث. لكن يجب أن يفكر في ستمراريته وليس العكس

-إن تفسير فيكو للمراحل التاريخية التي مر بها العقل تبدو ضعيفة هي الأخرى، لأن العقل لا يزل يجمع بين هذه العصور الثلاثة في عصرنا هذا، والعصور التي بينها فيكو كحتمية للدولة الحضارية تفقد إلى المصداقية الواقعية.

هذه الانتقادات وغيرها جعلت من الدراسات التاريخية مجرد دراسات سببية بعيدة عن الدقة المطلوبة، وحتى أن بلغت المناهج المتبعة في الأبحاث التاريخية، بعض التقنيات فإنها تبقى تقنيات سببية لا ترقى إلى القانون الرياضي.